مكتبتي ١٣

الخطوة الأولى

وقصص أخرى

بقلم: نهاني الأباصيري
رسوم: منى جامع

دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

بَسطتْ جَناحيهَا.. فَأقبلُوا عَليهَا وارتَمُوا فِى حضنِهَا يَلتمسون العَطفَ والحَنانَ.

أما العُصفورُ الأبُ فَكانَ يَندهشُ كَثيرًا لهذا الافراط فى العَطفِ والحَنان، فقَال لأولادِهِ الصِّغَار فى لهجةٍ آمرة: اتبعونى!..

سَارَ الأبُ بخطواتٍ قَصيرةٍ وسَريعةٍ، وَتبعَهُ أولادُه الصِّغَارُ فى همةٍ ونَشَاط مُحَاولين تَقلِيده، فَهُوَ - بالنِّسبةِ لَهم - المثلُ الأعلى والقُدوةُ الحَسنةُ.

وقفَ العصفورُ الأبُ عَلَى طَرفِ غُصنِ أحدِ الأشجار العَاليةِ.

أما الأم فقد شَعَرتْ فى دَخِيلةِ نَفسِها هَاتفًا يَدفعُ بهَا للاقترابِ والمراقبةِ، فَوقَفتْ من بعيد تتأملهم مليا فى خوفٍ وحَذر.

قَالَ العُصفورُ الكَبيرُ لأبنائِه :

اسمعوا يا أبنائى...

أعلم أنكم مازلتم صغَارا وأنَّ تَجرِبَتكم تَكادُ تَكونُ منعدمةً. وأنَّ خَبرتكم فى الحياةِ مَازالتْ قَليلةً جدا.

فعمرُكم الآن لا يَتجاوزُ العشرةَ أيامٍ ، ولَكِن عصفُورَ الكروان يَستطيعُ الاعتمادَ عَلَى نَفسه مُنذُ اليوم الأول مِنْ عُمره، حَيثُ يَستطيعُ أنْ يَبتعدَ عَنْ عُشه وأمه مَسافة تَقدر ببضعةِ أميال بَحثًا عن طعامِهِ ورزقِه وهو مَازالَ فى اليومِ الأول مِنْ عُمرِه، ثُمَّ يَعودُ ثانيةً إلى عُشهِ وأمهِ دُونَ أنْ يَضلَ الطريقَ!..

قَالتْ العَصَافيرُ الصَّغِيرةُ فى دَهشةٍ :

وهَلْ هَذَا مَعقولٌ!..

استرسلَ العُصفورُ الكبير فى الحديثِ قَائلاً:

نَعمْ.. والأغربُ مِنْ ذَلِكَ، قد تُهاجرُ بعضُ الطيور من بَلدٍ إلى أخرى تَبعدُ عَنهْا مِئاتِ الأميال ويَكونُ من بين تِلكَ الأسراب المهاجرة أفراد كثيرةٌ من الصِّغَارِ، لم تَتَدربْ عَلَى الهجرةِ من قَبل.

ومع هَـذا فـإنَّ الصِّغـارَ تَعـرفُ الطريـقَ وحدَهـا، وتَسـتطيعُ اجتيـازهُ دُونَ أنْ تلتمس الإرشادَ مِنْ أبناء جِنسِها الكبار!..

سَمعت العُصفورةُ الكبيرةُ ما قَالَه الأبُ ومـا يَنطـوى عليـه تَفكـيرُهُ، فاقـتربتْ مِنه لتقولَ فى قلق:

إنّهم مَازالوا صِغَارًا، ولا دراية لهم بالطيران أو البحث عن الطعَـام، وسـأقومُ أنا بهذه المهمة نِيابةً عَنهم، حَتَّى يَشبُوا ويَستطيعُوا الاعتمادَ عَلىَ أنفسِهم!..

تَعَجب الأبُ لقولِها وحَذرَهَا مِن التّدخلِ أو الإفراطِ فى تدليلها لهم!!

وجه العُصفورُ الكبيرُ حَديثَهُ لأبنائِه الصغَار قائلاً:

– ها هى يا أبنائى قد أشرقَتْ الشَّـمسُ لتوهـا وأزاحـتْ سـتر الظـلام.. وقـد أرسلتْ أشعتَها البيضاءَ الدافئةَ لتضـىءَ كُـلَّ شَـىءٍ مِـنْ حَولِنَـا!.. فـانطلقُوا فـى رعَايةِ اللهِ وأمنِه.

أخـذتْ هـذه الكلمـاتُ مأخذَهـا مِـن نَفْس العصَافـيرِ الصغـيرةِ، وقَبـلَ أنْ يَستكينوا لعواطف الأم ورَجَائِهَا دَفَعَهم الأبُ دفعةً بَسيطةً مِنْ أعلَى الغُصن الَّذِى كانوا يَقفُون عليه.

وَجَدت العصافيرُ الصَّغيرةُ نَفسها تَطـيرُ فـى الجَـو مُجـبرةً.. فـأطلقتْ العَنـانَ لأجنحتِها للمرةِ الأولى فى حياتِها مستسلمةً لأمرِ اللهِ المقضِى وقَدرِهِ المحتُوم.

تَعَثرت العَصافـيرُ الصَّغـيرةُ فـى البدايـة عـن الطـيران ولَكنَّـهَا اسْـتطاعتْ أنْ تَستَعِيدَ تَوازُنَها بَعدَ شىء من الجَهدِ فيما بعدُ!..

أما الأم فقدْ راحتْ تُراقبُ من أعلـى تِلَـك الشـجرة نجـاح التَّجربـةِ الجَرِيئـةِ فى سَعَادة وسُرُور وَقَالتْ لزَوجِهَا الحَكيمِ عَنْ قناعة تَامةٍ :

لا أصعبُ على المرءِ مِن الخطـوةِ الأولى فـإذا مـا اجتازهـا بنجـاح هَـانَ عَليـه ما بعدها. فهكذا يكونُ دائمًـا القَـائدُ النـاجحُ الَّـذى يتخـذُ القـرارَ المنَاسـبَ فـى الوقتِ المناسب!.

أما الأبُ الخبيرُ بالأمور والَّذِى كَانَ غَالبًا ما يَتَبينُ نتائجَ التَّجاربِ، وعَواقبَ الأحداثِ فَكَانَ يُراقبُ نَجاحَ تَجربتهِ بفخر واعْتزَازٍ وهوَ يَقولُ لزوجتِه :

إنَّ العَطفَ والحنانَ أمران هامان فى حياةِ الصِّغَار بشرطِ ألا يتجاوزا الحد المطلوب، فجميع ما يُصيبُ المرء فى حياته من شقاء إنما يرجعُ لقصوره وجهلهِ وعدمِ درايته بشئون الحياةِ وتجاربها.

رَجَعت العصَافيرُ الصغيرةُ إلى عُشها ووالديها مرةً ثانيةً بَعد أن امتلاتْ بُطونُهم بالطَّعَامِ وشحذتْ نُفُوسُهم بالسَّعادةِ والرضَا وهم يَصدَحُونَ بأغنية جميلة لِلصَّبَاح ! !

* * *

غفوات أحلام

نما جِسمُهُ، وضَاقَ عليه مَسكنُهُ، وأصبحَ مِنْ الضَّرُورىِّ أنْ يَبحثَ لِنفسِهِ عَنْ مَسكن جَدِيد أكثرَ مُلاءَمة، لكى يَقِى الجزءَ الأعزلَ مِنْ جِسمهِ من مُدَاهمةِ الأعداءِ.. حَتَّى وقعَ اخْتيارُهُ عَلَى مَسكن أكثرَ اتساعًا مِنْ ذَلِكَ المسكنِ القَدِيم.

خَرجَ السرطانُ الناسكُ مِن القوقعةِ الصَّغيرةِ الَّتِى كَانَ يَتخذُ منها مَسكنًا لَهُ مُنذُ أنْ كَانَ صَغيرًا، ليستقر أخيرًا فى منزلِهِ الجَدِيدِ الَّذِى يتناسبُ مَعْ حجمه الآن.. وهذا المنزل الجديدُ عِبارة عن صَدفة قشريةٍ بيضاويةِ الشكل.

تَرَكَ السرطانُ النَّاسكُ تِلْك القوقعةَ عَلَى الأرضِ ورَاحَ يُهَيِّىءُ نَفسَهُ للعيشِ فى المنزل الجديد.

وَكانَ الفأرُ الصغيرُ يُرَاقبُ بمنتهى الدقةِ تَتَابعَ تِلكَ الأحداثِ بعينين صَغيرتين نَفاذَتين فَجرَى مُسرعًا نَاحيةَ القوقعة الصغيرةِ المُلقَاةِ عَلَى الأرضِ وألتقطهَا بفرحة وسَعادة شَديدتين..

ولا أحد يَعرفُ سرَّ سَعَادتِه بهَا!

وَضَعَ الفأرُ الصَّغيرُ تلك القوقعةَ الجَمِيلة على أذنيهِ، فَسمَعَ صوتَ البحر، ثُمَّ أبعدها عَنْ أذنيه فَلَمْ يَسمعْ صوتَ البحر.. وهكذا كَرر تلك المُحاولةَ مَرات ومَرات، وفى كُل مرةٍ يَسمعُ فيها صوتَ البحرِ كَانَ يُقَهْقِهُ كما يُقهقه الطفلُ الصَّغيرُ حِينَ تُدغدغه أنامل أمهِ!..

وَكانَ الفأرُ الصَّغِيرُ فى كُل مرةٍ يُؤكدُ لِنَفسِهِ أن مَا سَمعَهُ هُوَ بالفعل صوت البحر. أوْمَأَ الفأرُ الصغيرُ بيدهِ إلى أُم رأسهِ، وراح يُصفرُ صَفَّارة تَدل على ما فيه من سذاجة وغَفلة ولم لا ؟! فهو لا يرى من البحر إلا خيطًا رفيعًا أزرق اللون لا يرى إلا بالمجهر!..

وَضَعَ الفأرُ تِلكَ القوقعةَ على أذنَيه ثانيةً، فإذا به يشعرُ بأن البحرَ قريبًا منه، ولا يفصله عنه إلا عِدةُ أمتار!..

أما المياهُ الزرقاء الصَّافية فكانتْ تجرى فيه بانسيابية رَائعةً، وأشعةُ الشَّمس البَيضاء التى انعكستْ عَليهِ لترتد عَنهَا ألوانٌ بديعةٌ تَأسر القُلوبَ، فكانا يُحرضانهِ عَلَى الاقترابِ أكثرَ فأكثرَ!..

شردَ الفأرُ الصَّغِيرُ بعيدًا، ورَاحَ يُمنى نفسَهُ بصيف رائع، حَتَّى إنَّه شَعَرَ بنَسيم بَاردٍ لطيفٍ يَترقرقُ فيلامسُ وجهه بخفةٍ ورشَاقةٍ.

أما فى عرض البحر فكانَ يرى أشكالاً وأحجامًا مختلفةً مِنْ السُّفن تَجرى فِى كُلِّ اتجاه، وبالقُربِ من شَاطئِ البحر كَانَ يَرى استعراضًا مائيًا يقومُ بأدائه مجموعةٌ من الأسماكِ المُختَلفةِ الأشكالِ والأحجامِ والألوان.. فمعظمُ الأسماك مُلونةٌ ومُزَركشةٌ!! وكُلُّها كانَتْ تتلألأ أمامَه فى البحرِ كَمَا الفضة.

وها هو كل شىءٍ حَولَه يدفعُهُ دَفعًا للاعتقاد بأَن ما يراه مَا هُوَ إلاَّ البحرُ!!

وما تِلَك المناظرُ والأصواتُ كُلها إلاَّ حقيقة ملء العين.. وملء السمع!..

ولفرط سعادته أخذَ يَخاطبُ البحرَ وكَأنَّهُ يَراه قَريبًا جدًا يَقولُ:

من ذا الَّذِى يراك أيُّها البحرُ ولا يَشعرُ نحوك بفيضٍ مِن السَّعادةِ والروعةِ والسِّحر!..

ومَنْ ذا الَّذِى يَراك ولا يَشعرُ نَحوكَ بالتَّهيبِ والرهبةِ فى نفس الوقت!..

فأنا أعرفُ أن مصاحبتَك أيُّها البحرُ محفوفةٌ بالمخَاطرِ، ولَكنَّها مخاطرُ شيقةٌ

بالنسبةِ لى.. فهى تُثِيرُ فى نَفسى الجَسارةَ والإقدام

وأنا أحب المغامراتِ المثيرةَ!! إذنْ فما علىّ إلا أن ادعوَ أصدقائى للقيام بهذه الرحلة، ونَرتَدِى ملابسَ البحر ونَصطحبُ معنا أدوات الصيد ومعداتِ النجاةِ، ونَتخذُ منك أيتها القوقعةُ الجميلةُ قاربًا، وقبلَ أنْ يَهم بتنفيذِ فكرتهِ الخياليةِ وَضَعَ القوقعةَ على أذنيهِ مَرة أخرى، فإذا به يَسمعُ صوتًا مدويًا.. فَتَلفتَ حَولَهُ مَراتٍ ومَراتٍ فى تَهيب ورهبةٍ، ولأنه فعلاً كَانَ يشعرُ بالقلق، فَلَمْ يزدْهُ الأمرُ إلا مزيدًا من القلق.. حيث رأى آثارَ ريح عاصفةٍ شديدةٍ قَدْ هَبتْ فدوتْ بها جوانبُ الأفُق.

ألقى نظرةً سَريعةً عَلَى البَحر، فَوجدَ الحياةَ فِيه قَدْ اضطربتْ، حَيثُ ارتفعتْ الأمواجُ، واهتزتْ السفنُ، واضطربتْ الأسماكُ، حَتَى هُوَ فَقَدْ أصيبَ بدوار البحر.

فما كَانَ مِنهُ إلاَ أنْ ألَقى بالقوقعةِ الجَميلةِ بعيدًا عنه، حَتَّى لا يصاب بمزيد من الأذى بعد أن فقد رغبتَهُ فى سَمَاعِهَا، والتمَادِى فى أحلامِ اليقظةِ!..

* * *

سلة المهملات

عِندمَا كنتُ صَغِيرًا، كَانَ يحلُو لِى دَائمًا أنْ أرتَدِيهَا عَلَى رَأسِى.. شيئًا غَامضًا كان يربطنى بها.. مَا هُوَ.. لا أعرفُهُ. فَقدْ كُنتُ أعتبرُهَا قبعةً نَحاسيةً كَتِلكَ الَّتى يَرتدِيهَا رجلُ المَطافىءِ، وكنتُ مُولعًا بشجَاعَةٍ وجَسَارةِ رجَالِ المطَافىءِ لِمدَهِم يد العَون لكُلِّ مَن يحتَاجون إليهم.

ولَكِن وَالدِى كان دَائمًا يُعنفُنى مُحتجا عَلَى ارْتدَائِى لِسَلةِ المهملاتِ عَلَى رأسى.

كَانَ أبى يَقولُ بَين الحِين والآخر مُداعبًا: هَذِه يا أحمدُ سَلةُ قَدْ خُصصتْ لاحتواء المهملات والنفاياتِ، وكُل مَا قَلّ نَفعُه، وأصبحَ لا فَائدة تُرجى منه. فإذا ما أحسستُ أن رأسَكَ قَدْ أصبحتْ لا فَائدة مِنها، فلا مَانع من وضعِها فيها.

ضَحكَ الجَميعُ إلا أنا!..

فَقد كَانتْ تَحتَوى أوراقى الَّتى كنتُ أقضِى فيها السَّاعَاتِ الطّوَالَ فى كِتَابتِها بكلِّ رَأفةٍ وحَنان. واليومَ فقط، كنتُ قَدْ وضعتُ فيها ثَمرةَ مَجهُودِ سَاعتين كَامِلَتين، قَضيتهُما فى كِتابةِ الواجبِ الَّذِى طَلبه منى مدرسُ اللغةِ العَربية، كنوع من العِقَابِ. الَّذِى أمْقتهُ.

فقد تَباطأتُ بالأمس فى كِتابةِ الواجبِ، وكَنوع مِن العِقابِ الَّذِى أبغضُهُ أمرنى مُدَرسُ اللغةِ العَربيةِ بكِتابتهِ ثلاثين مَرةً!!

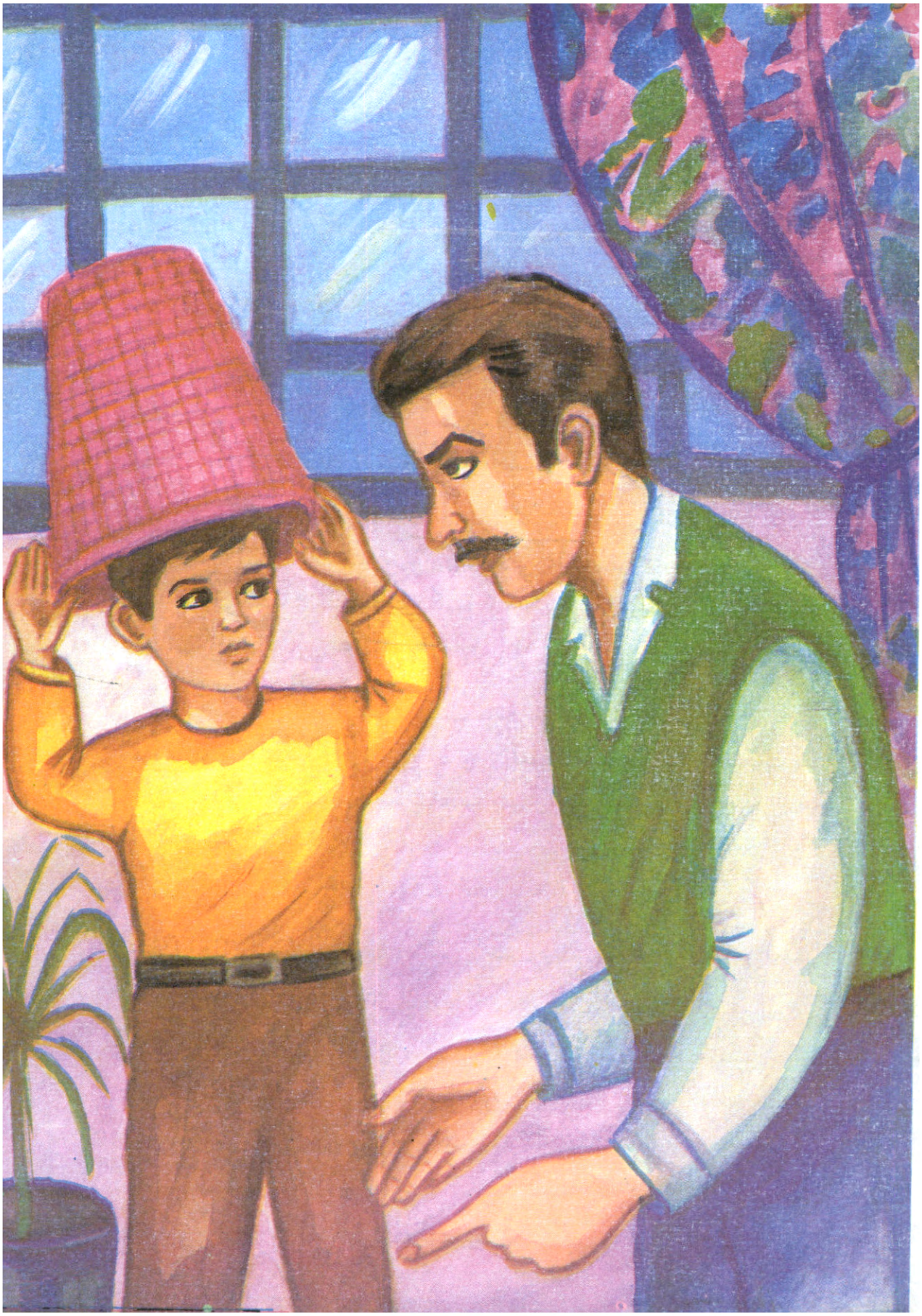

أخذتُ أكتبُ الواجبَ مرةً تلو الأخرى فى مَلَل، حَتىً تَورَمتْ أصابعُ يَـدِى، وبعد أنْ ألقى المدرّسُ عليه نَظرةً مُتراخيةً، أمرنِـى بوضعـهِ فـى سَلَّةِ المُـهملاتِ الَّتى احتَوتُه وهى مُشفِقةٌ عَلىَّ!

نَشَأَتْ بَينَنَا عَلاَقَةُ صَدَاقة مِنْ نَوعٍ خَاص، فكلما أمعنتُ النظرَ إليها أحسستُ قوةً تَجتذبنى إليها، قوة مَغَناطيسية، لا أستطيعُ منها الفِكَاكَ.

وذاتَ يومٍ.. خيّلَ إلىّ إننى أسمعُها تُحاورنى وكأنَّها تَقُولُ بصوتٍ هَامسٍ :

اسمعْ يا أحمدُ.. أنْ والدَك عَلَى حَق.. فسَـلّةُ المـهملاتِ كمـا هـو واضـح مِـنْ اسْمِهَا، قَدْ خُصصتْ لوضعِ ما قلَّ نَفعُه وأصبحَ لاَ فَائدةَ مِنْ الاحتِفاظِ به.

ولَكِن هُنَاكَ بَعضَ الأَشياءِ يُمكنكَ ادخال بعض التَّعدِيلاتِ عَليَها لتصبحَ أكـثر فَائدة وتُعِيَد اسْتخدامَها مرةً أخرى بشكل آخر.. تَمامًا كما يحدثُ عِندَ مُعالجـةِ مياهِ الصرف الصّحِى وإعَادةِ اسْتخدامِها فى المجالاتِ الزرَاعيةِ.

فهل خيَّلَ إليكَ ذَاتَ يَوم أن هُنَاكَ فَائدةً تُرجَى مِنْ مياهِ الصَّرفِ الصحى؟!

ولأن أحمدَ كَانَ تلميذًا نَجِيبًا ويَمتلكُ حِسًّا فَنيًّا رفيعـا، جَعَلَـهُ شَـغُوفًا لمعرفـةِ كُلِّ مَا هو جَديـدٌ، فَسَـأَلهَا: وكَيـفَ لى أنْ أعِيـدَ اسْتخدَامَ تلـك الخامـاتِ مِـنْ جَديدٍ؟ لعلـى بذَلـك أكـونُ قَـدْ سَـاهمتُ بشـكلٍ غَـير مُبَاشـر فـى تَنقِيـةِ البيئـةِ من التَّلوَثِ.

أجَابتُه ضَاحكةً :

هَذَا أمرٌ شَرحُه يَطولُ.. فَقد وصلتنـى آخـرُ رسَـالةٍ مِـنْ شَـقِيقتى الَّتـى تَعِيـشُ بإحدى الدول المتحضرةِ تَحكى لى فِيهَا عَنْ تَجربة رَائدةٍ فى هَذَا الشَّأن.

حَيثُ يَقومُ المواطنون هُنَاك بتصنِيف مُحتَوياَت القمامةِ.. فَهَذِه خَاصـةٌ ببقايـا الطَّعَامِ، فيُعادُ اسْتخدَامُها فـى تَغذِيـةِ الأرض الزِّرَاعِيـةِ، وتِلـكَ خَاصـةٌ بـالعُلبِ الفَارغـة التّـى تَـمَّ غَسلُهَا قَبـلَ وضعِـهَا بسلة المـهملات، فيُعادُ تَصنِيعُهـا مَرةً

أُخرَى.. أمَا هَذِه فخَاصةٌ بالزّجَاجَاتِ الفَارغةِ الَّتى يُعادُ تَصنِيعُـهَا مِـنْ جَدِيـدٍ، وتِلـكَ فخاصـة بـالجرائدِ والأورَاق الَّتـى يُعـادُ تَصنِيعُـهَا وادخَالُـهَا فـى صِنَاعاتٍ مُتعددةٍ!

فَتَحَ أحَمدُ فَاه منبهرًا بِمَا سمعه وقَالَ فى عفوية: هـذا شـىء رائـعٌ.. وإنْ دَلَّ عَلَى شَىءٍ، فإنما يَدل عَلَى حبهم لوطنِهم.

اسْتَأنفتِ السلةُ حَدِيثَها السَّابقَ وقَالتْ لأحمدَ والآن دعنا نَستكملُ ما بَدأناه إنْ أردتَ..

قَالَ أحمد فى لَهفةٍ.. أنا لا أريد فَقط بَل أتَمنَّى أنْ أتعلمَ الكَثِيرَ والكَثِيرَ!..

قَالتْ مُرحبةً :

عَليك أنْ تُفكرَ أولاً فى كَيفية اسْتخدامِ كُلِّ شَىءٍ قَبلَ إلقائهِ فى سَلة المهملاتِ فقد ألقيتُ فيها بالأمس بعضًا من المخلفات الوَرقِية وشَذَفَ الأقلامِ الملونة بألوانٍ زَاهية ومُتعددةٍ.

طَلَبتْ مِنه أنْ يَعيد استخدامَ تِلكَ الخَاماتِ لاسْتخرَاجِ شىءٍ جَمِيل يَنتفعُ بهِ، فأَحضرَ أحمدُ كراسةَ الرَّسمِ وأخَذ يَرسمُ ثلاثَ لوحَاتٍ.. احداهُنَ تَضم بَاقـة مـن الزُّهُور، والثانية بهَا مَجمُوعةٌ جميلةٌ من الفراشـاتِ، أمَـا الثالثـةُ فرَسَـمَ عَليـهَا مَجموعة مِن العَصَافِير.

قَامَ أحمدُ بتجميل هَذِه اللوحاتِ الثـلاثِ بلصـق شَـذفِ الأقـلاَم ذَات الألـوانِ المتعـددةِ الزَّاهِيـة، مُسـتَعِينًا ببقَايـا أوراقِ الرَّسـمِ المُلونـةِ فـى عَمـلِ أوراقِ وأفـرعِ الوردَاتِ، ثم جَمَل بهن حُجرتَه.

وفى اليـوم التَّـالى ألقَـى نَظـرةً مُتأملـةً عَلـىَ مَـا حَولـه قبـلَ إلقَائِـه فِـى سَـلةِ المهملاتِ.. فَها هُوَ قَدْ تَعلم كيفَ يستفيدُ مِن الخامات ولَكِنـه للأسـفِ لم يجـدْ منـها مَـا يَلفـتُ نَظـرهُ سِـوى عُلبـة مَصنوعـةِ مـن الكرتُـون كـانتْ لِصبَـاح كَـهربَائى، ألقـى عَليَـها نَظـرة مُتراخيـةً وهـمَّ بإلقَائِـهَا بسَـلةِ المُـهملاتِ، إلا أنها استوقفته قَائلةً :

أمّا هَـذِه، فيمكـنُ تَغلِيفُـها بقطعـةٍ مِـنْ ورق الهَدايـا ذَات الأَلـوان الزَّاهِيـةِ واسْتخدامِهَا كَزُهريةٍ، تضَعُ فِيهَا مَجموعة مِـن الزُّهـور الصّنَاعِيـة أو تَستخدمُها فى حفظِ الأقلام.

وفى اليوم الثَّالثِ لم يجدْ فى تلكَ السَلةِ سوى بَعض الأوراقِ الصَّغـيرة وبَقَايـا مِن الخُيوط الصُّوفِية القَدِيمة الَّتى اسْتَغنتْ عَنَها أمهُ بالأمس.

وهُنَا قَالتْ لَهْ صديقتُه:

- مَاذَا تَرى فِى هَذِه الخُيوطِ؟!

- أجَابَها بعد أنْ أمَطَ شَفتيهِ: لاَ أعرفُ!

- لفْ هَذَا الخَيطَ علـى أصبعِـكَ عِـدةَ لفـاتٍ ثُـمَّ حَـاولْ تَثبيتَـها بقطعـةٍ مِـن السّلك الرَّفيع جَيدًا وذَلِكَ مِن الطـرف الأسـفل للخيـطِ، ثُـمَّ انزعـه مِـنْ أصبعِـكَ وقص طَرفَه الأعلى.

حَاولْ بعد ذَلكَ نبش تلك الخيوط بحرص شَديدٍ بطرفِ إبرة الحِياكةِ.

كَررْ ذَلِكَ مَع بَقيةِ الخُيوطِ ليصبحَ لديك مجموعة من الوردات بألوانٍ مُختلفةٍ.

أما فى اليومِ الرَابع، فَقَدْ أشَـارتْ عَليـه بـأنْ يَطلـبَ مـن الدتِـهِ بـأدب عِنـدَ اسْتخدَامِها للبيـض أنْ تَثقـبَ البيضـةَ ثُقبين، أحداهمـا مـن الطـرفِ الأعلـى للبيضةِ، والثانى عِندَ الطَرفِ الأسفل، مـع محَاولـةِ تَفريـغ محتوياتِـهَا بحـرص شَديدٍ، ثُمَّ اتركُهُ ليجفَ قَليلاً بعَد غَسلهِ بالمـاءِ، قـمْ بَعـد ذَلـكَ برسِـمهِ وتَلويِنـهِ بالألوانِ السائلةِ، اجمعْ بعد ذَلِكَ ثِقَابَ الكـبريت المُستعملة واكسـرْ كُـلَّ واحـد مِنهم إلى قِسمين، واربط كُلَّ واحد منهم من منطقةِ النصفِ بخيط رفيع ثُمَّ ادخله من أحد الثقبين. ليصبحَ لَديك مجموعة من الكُراتِ المَلونةِ المتدلية. يُمكنـكَ بَعـدَ ذَلِكَ تَعلِيقُهَا فِى شَجرةِ أعيادِ المِيلادِ.

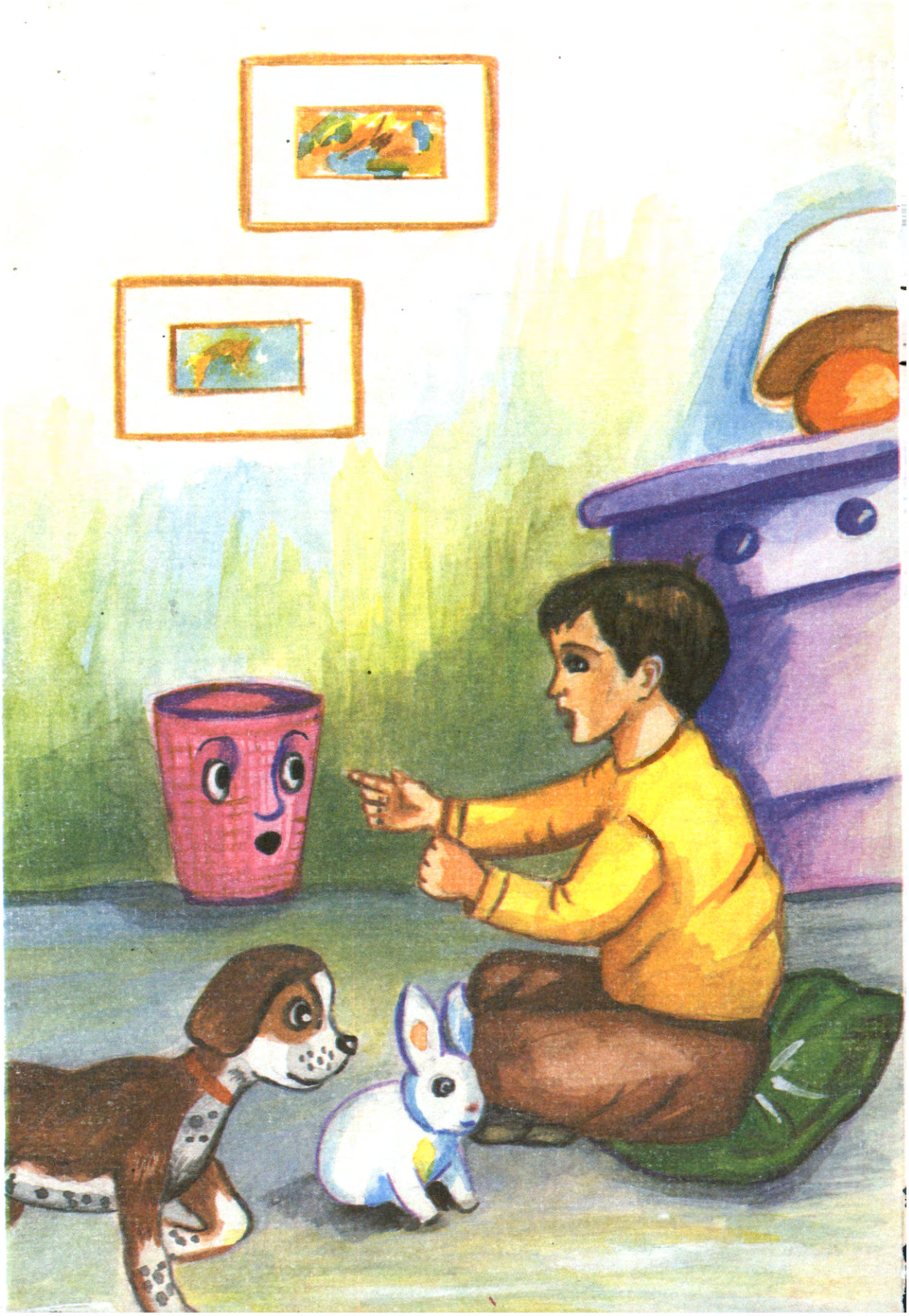

عَلَى مَا يبدو أن هَذِه الفكرة قَدْ حَازَتْ إعجابَ أحمدِ، فَقَامَ بتَنفيذهَا عَلَى الفور بعدَ أنْ أضافَ شَكلاً جَدِيدًا لَها، حَيثُ قَامَ برسمِ بَعضِ الأشكال الهَندسية ببقَايا تِلكَ الخُيوطِ المُلونةِ، مُستَعِينًا فى ذَلكِ بمادة لاَصِقةٍ.

سَعدتْ سَلةُ المُهملاتِ كَثيرًا لما لَقيتُهُ مِن اسْتجابةِ هذا الفَتَى ومُحَاولاتِه الابتِكَارية، مما جَعَلهَا تُفضى إليه بالكثير من الأفكار فَقالتْ :

اسمَعْ يَا أحمدُ.. أنَّ عَقلك يميلُ إلى التَّطُور والاسْتحداثِ، والعقلُ إذَا نَشَطَ أبدعَ، لِذَلك سَوفَ أفضى إليكَ بالكَثير مِن الأفكار، ولَكِنْ حَذَار أنْ يعطلَك ذَلكَ عَنْ مُرَاجعةِ دِرَاستِكَ، فإنْ كَانتْ مُمَارسة الهواياتِ شيئًا هاما وضروريا، فلا شَكَّ أنَّ التَّحصيلَ العلمى أكثرُ أهميةً !.

وبينما الأمرُ كذلك إذا بعامل النَّظافةِ يأتى لجمعِ النفايات مِن العمارةِ كُلِّهَا ومِن العِمَاراتِ المُجَاورةِ، وهُنَا وَجَمَ أحمدُ وجومَ الحزين حَينَ تَناولتْ أمهُ سَلةَ المُهملاتِ، وتَركتُه فى مكانِه حَائرًا مَشدُوهًا، أعادتْ الأمُ تِلكَ السَلةَ إلى مَكانِهَا بعدَ أنْ أفرغتْ مُحتوياتهَا. وحين فعلت ذلك رأت أحمد وكَأَنَّ شعَبة مِن شِعَاب قَلبهِ قَدْ سَقطتْ بَينَ أضلاعِهِ، وأنَّ لِسَانَهُ قد ألتوى عليه فأَصبحَ لا يَنطقُ، ولما رأته عَلَى هَذِه الحالة طَمأنتهُ مداعبة :

لا تَنزْعجْ يا أحمدُ.. فقد انقَضَى الصَّباحُ إلا قَليله، ولن يأتِ المساءُ إلا ويكونُ قَد تَكونَ لَدِيكَ الكثيرُ من الخاماتِ.. فما أكثرَ النفاياتِ عِندنَا !

وضَحكَا معًا !..

مرتْ السَّاعاتُ تلو السَّاعاتِ دونَ أنْ تَتفوَّهَ السَّلةُ بكَلِمَة وَاحدةٍ، مُفسحةً لَهُ المجالَ لمرَاجعةِ دِرَاستِهِ فى هدوءٍ.

جَلَسَ أحمد يُرَاجعُ دِراسَته فى همةٍ ونَشَاطٍ حَتىَّ يَتفرَّغَ فى المساءِ لممارسة هوايته.

وفى المساءِ استأنفتْ سَلَةُ المهملاتِ حَدِيثَها مع أحمد حَيثُ قَالتْ لَهُ:

أرأيتَ يا أحمدُ كَيفَ أن المحتوياتِ قَدْ تَغيرتْ، ومِنْ ثَمّ تتغيرُ الابتكاراتُ.. فعِندكَ مثلاً هذه الكرتونة، يُمكنكَ الاستفادة منها فى أشياء شتى.

سأل أحمدُ فى لَهفةٍ.

كَيفَ هَذَا باللهِ عَليكِ؟!

أجابَته فى ودٍّ:

سأَجعلُكَ تستخرجُ مِنها عِدة أعمالٍ فَنية جميلة قبل أن تُلقى بها.. ستسعدك كثيرًا.

وبلهفةٍ أشد سَألَهَا أحمدَ:

كَيفَ هَذَا.. أخبرينى بسرعةٍ فأنَا أشتاقُ كَثيرًا لمعرفةِ أفكارِكِ الجديدةِ وابتكاراتِك الرَائعةِ!

ضَحكتْ سَلة المُهملاتِ وقَالتْ فى تواضع:

أنا أعطيكَ الفَكرة الاجماليةَ فَقَط، ولَكنك تُطورها أنتَ بذكائكِ وحِسكَ الفَنى الرائع!

والآن.. مَزِّقْ هذِه الكرتونةَ وحوّلْهَا إلى قِطعٍ مُتناهيةِ الصغرِ، ثُمَّ ضَعْ هَذِه القطع فى وعَاء بهِ مَاء لمدةِ ثلاثةِ أيامٍ. بَعدَهَا خَلّصْهَا من الماءِ الزائدِ قليلاً.

اعجنْ بَعدَ ذَلِكَ هَذِه الورقات المبللةَ بجزء من الدِّقيقِ، لتُصبحَ لَديكَ عَجينة سهلةَ التَّشكيل. وقمْ بتَشكيلهَا كيفما يتراءى لك.

حَيثُ بإمكانِكَ أنْ تَعملَ مِنها وعاءً للزهور أو أقنعةً للدُّمى.. إلى غير ذَلِكَ مِن الأشياء الَّتى تُفضلُهَا!..

هَلَلَ أحمدُ مِن السَّعادةِ ورَاحَ يتراقص طربًا وفرحًا، فها هو سيكون لديهِ مَجموعة من الدمى، كتلك الَّتى رآهَا فى مسرحِ العرائسِ، تَلعبُ

وتَرقصُ وتغنى!

وهَا هو سيقومُ بصنع لعبتِه بنَفسِه. وسَتقُومُ إخوتُه بحيَاكةِ ملابسِ تَلك الدُّمى، ويَلعبون سَويا فى الإجازةِ الصّيفيةِ!

وبينما هوَ كَذلِكَ، إذْ طَرأتْ عَلَى بَالهِ فكرةُ كِتابةِ مَشهدِ تَمثِيلى، ليَقومَ وإخوته بتمثيله فى الإجازةِ، فَرحتْ سَلةُ المهملاتِ بهذِه الفكرةِ الرَّائعةِ.. ورَاحتْ تُهنئه عليها قائلةً:

إن النجاحَ يَجلبُ النجاحَ، كما يَجلبُ الخمولُ الكسلَ، فاجتهدْ أن تكونَ دَائمًا مُفكرًا ومُبدعًا!.

ووعدتُه بأن تُعلِّمهُ كَيفَ يَصنعُ سِتارة لِحُجرةِ المُذاكرةِ، مِنْ تِلكَ الأوراقِ الَّتى قَضىَ السَّاعاتِ الطوالِ فى كِتابتِهَا، ثُمّ استقرتْ بلا شَفقةٍ فى سَلةِ المُهملات.

اندهشَ أحمدُ لما سمعهُ وأخذَ يُرددُ: سِتَارةٌ مِن الورق!..

كيف هذا:. أخبرينى بربكَ كَيف أصنعُ سِتارةً مِن الورق!

أخبرته صَدِيقتُه.. أنَّ هذِه مُكافأتَها لَه حِينَ ينتهى من كِتابةِ هَذا المشهدِ التَمثِيلى.

عَكفَ أحمدُ عَلَى القراءة والاطلاع فى أوقاتِ فِراغهِ لِيَزيدَ حَصِيلَته اللغوية ويعمل عَلىَ تَجويدها.. فهو يَعلمُ أن كِتابَةَ مِثلَ هذا المشهد التمثيلى، يَحتَاجُ لاستعداد مِنْ نَوعٍ خاص.

وفى الاجازةِ الصّيفيةِ كانَ يتردد أحمدُ كثيرًا عَلَى المكتبات العَامةِ.. حَتَّى نمتْ إلى عَقلهِ الواعى فكرةٌ رائعةٌ.. استطاع أنْ يُترجمَها على الورق بأسلوب أدبى جميل.

ولما قَرأها عَلَى صديقِته، أبَدتْ إعجابهَا الشَّدِيدَ بالفكرةِ، ولَكنَّهَا أشَارتْ عَليه ببعض التَّعديلاتِ لتُصبحَ أكثرَ نُضجًا، فتؤهله للمشاركة فِى مهرجانِ القراءةِ للجميع.

رَحب أحمدُ كثيرًا بهذا التكليفِ - ولعله وافق رغبةً كانتْ مَكبوتةً فى نَفسِه، ومِنْ ثَمّ سارع إلى التنفيذِ.

وكانتْ المفاجأةُ الكبرى.. حِينَ فَازَ أحمدُ بالجَائزةِ الأولى فى مهرجانِ القراءةِ للجميع، وكان لذلك أثرُهُ العظيمُ عَلَى نَفسِه الَّتى عَاشتْ حبيسةَ جدرانِ حُجرةِ الدراسةِ فحسب، فقد أشرقتْ على نَفسه شَمسُ المعرفةِ فانتعشتْ ورفرفتْ بجناحيها، ثُمَّ طَارتْ مُحلقة فى الفضَاءِ الفَسيحِ بسعادةٍ.

شَاركتُه سلةُ المهملاتِ الفَرحةَ بفوزه فى هذا المهرجانِ العظيمِ، الَّذِى يَعدُ مَعملاً لتفريخ أجَيالٍ واعدةٍ ومُثقفةٍ.. أجيال قادرة عَلى إثباتِ وجودِهَا ومواجهةِ تحدياتِ القرنِ القَادمِ!

هَا هُوَ أحمدُ قَدْ وفى بوعدِهِ!..

وما بَقى إلاَّ أنْ تَفى صَديقته بوعدهَا!

فطلبتْ مِنه إحضارَ كُلِّ الأوراقِ الَّتى كَانَ يَمقتُهَا، لتعلمه كيفَ يَصنعُ مِنهَا شيئًا يحبه.

أحضَر أحمدُ كُلَّ مَا لديه مِنْ أوراقٍ وجميع الأدواتِ الَّتى تَلزمُ لإعدادِ تِلكَ الستارة الورقيةِ!!

طلبتْ مِنه صديقته أنْ يلفَ الورقةَ الأولى مِنْ أحدِ زوايا طَرفِهَا. ثُمَّ يَلصق الطرفَ الآخرَ عَليها.. ويُكرر ذَلك مع بقيةِ الأوراقِ لتصبحَ فى النهاية شيئًا مُتماسكًا يُشبه العَصَا الرفيعةَ.

والآن وبعد أنْ تكوّنَ لديه مجموعة من العصى وقَصّ أطرافهَا، ليصبحوا مقاسًا واحدًا. عَليه أنْ يحضرَ الآن قِطعتين مُتساوتين مِنْ خَيط رفِيع ومَتين.

والآن عليه أنْ يضعَ طرفَ إحدى هَـذِه العِصـى علـى مَنطقـةِ النِّصـفِ لقِطعـةِ الخَيطِ الأُولى. ثُمَّ يَضع الطرف الآخرَ للعُصى عَلـىَ مَنطقـةِ نِصـفِ قِطعـةِ الخَيـطِ الثانى ويَربطُهمَا بإحكامٍ.

يُكررُ ذَلِكَ حَتَّى تَنتهى كميةُ العصى المصنعة من الـورقِ. ثُـمَّ بَعـدَ ذَلِـكَ يَقـومُ بتلوينها باللونِ المفضل لديهِ ويعلقها!

شَكَرَ أحمـدُ صديقتـه علـى حُسـنِ صَنيعـها، فبادلتـه التحيـة بأحسـن منـها وهى تقولُ:

أرجو أنْ تعلقَ هَذِه السِّتَارةَ فى حُجرة «المعرفةِ» وألاّ تَحتاج لعملِ غَيرِهَا عَلَـى مر السنين!

فهَا هِى.. قَـدْ بـددت لأحمـد تِلـكَ الرتابـةِ الَّتـى كَـانتْ تَـأتى إليـه متزاملـة مع التعود.

وهَا هُوَ.. قَدْ تَعلمَ كَيفَ يستثمرُ وَقتَهُ ويَميطُ عَنْ نَفسِه صَداءَ الكسـلِ، ويَجلـو عَنْ عَينيه غشاوةَ التّبلدِ والرُّكُودِ!!

* * *

رقم الإيداع	١٩٩٩/١١٢٠٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5881-4

٧/٩٩/٦٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)